



# حروب الجيل الرابع تبدأ من المواجهة الإعلامية

## الدعاية المضادة والحرب النفسية تحققان ما يعجز السلاح عن إنجازه



تنفيذ أجنات قوى وتنظيمات تدير العملية الإعلامية من خلف الستار



إدراك تام لأهمية وسائل الإعلام والتواصل

تغيرت خطة العمل وشكل الاستهداف في الجيل الرابع، هو تلك الحرب النفسية التي تستهدف الجيش الليبي وتحجبه عن قضيتته الأساسية ودوره في توحيد البلاد وتأمين حدودها. أبرز حرب تخاض بالوكالة في العالم العربي من طرف العديد من القوى الأجنبية، هي حرب بث الأفكار المتشعبة والتطرف الديني، وهي ظاهرة اختلط فيها الحابل بالنابل من قوى تسهر على تمويل جماعات وتنظيمات من خلف ستار، وترعاها أجهزة استخباراتية إقليمية ودولية، لا تتورع في استخدامها تحقيقاً لمصالحها بضرب استقرار ومصالح الدول المستهدفة. وتذكر كيف تمت عملية إدخال تنظيمات أجنبية منطرفة إلى داخل سوريا، وسيرورة تنظيم داعش وفروعه في العراق وسوريا وليبيا وشبه جزيرة سيناء إذا تأملنا ما تقوم به جندا وتنظيمات النصر وحرار الشام وأنصار الشريعة وأنصار بيت المقدس وسرايا الدفاع في ليبيا وغيرها.

### نظرية المؤامرة

أخطر العناصر في حروب الجيل الرابع هي الحروب النفسية والشائعات وتصريف نظرية المؤامرة للتأثير في العقول والمشاعر، وهذه الحروب تشن على مدار الساعة مدعومة بأخبار وتسريبات وفيديوهات تهدف إلى خلق الإثارة والغضب، فضلا عن القيام بدعاية سوداء تسمس المفكرين والصحافيين والعلماء، فهي تسعى بذلك إلى اغتيال العقل العربي، فتصور الحرية فوضى والتعدد شرا والوسطية نفاقا. وبالتالي فهي تستهدف تحطيم الجدار الرمزي والمعنوي الذي يمنح التفاؤل بالحياة وإبقاء جذوة الأمل حية لدى الشعوب العربية، ما يكشف كيف

من داخل الدول التي يستهدفها، مستندا على وكلاء محليين يستهدفهم بعناية بناء على مشاكل عرقية أو عرقية أو إثنية أو لغوية.

### ضرب الوحدة

أبلغ درس في هذا الباب، ما قامت به إيران في العراق عندما استهدفت مناعة الجسم العراقي الداخلي، وتخريب وحدته الداخلية، فأتجهت لإشعال حرب مذهبية بين السنة والشيعية، والكل يذكر كيف تم النيل من وحدة الجيش العراقي، فسهلت هزيمته بشكل منقطع النظير، ثم تم التمهيد بعد حل هذا الجيش لحرب أخرى، حرب أهلية أجهتها إيران بين الشيعة والسنة العراقيين لكي تبدأ حرب داخلية أخرى تخدم التوسع والنفوذ الإيرانيين، وتنفذها بيد مباشرة الميليشيات التابعة للجيش الثوري الإيراني.

وكان اليمن كذلك مسرحا آخر لهذه المواجهة، حيث تم استغلال الاصطفاف القبلي على أشده في الجيش، وسهل تقسيمه بين من يدعم الشرعية ومن يدعم الحوثيين. ثم قام الإخوان المسلمون بتأجيج الصراع في اليمن بنحوهم إلى ميليشيات تخدم بعض المحاور الإقليمية، حيث كانت الجماعة متغلغلة في أجهزة الدولة، وفي مؤسسة الجيش على وجه الخصوص. كما شكلت فتاواه التكفيرية ذريعة للنيل من الجنوبيين وقاموا بعمليات ابتزاز كبيرة باستعمالهم عناصر من تنظيم القاعدة في هذه العملية، ولطالما قام الكثير من نشطاءهم بالدعوة ضد الشرعية، وإلى المصالحة بين الحوثيين وجماعة الإخوان، بالإضافة إلى النيل من سمعة ومداقية التحالف العربي. كما أن الوضع في ليبيا، استهدف بدوره أول ما استهدفه النيل من صداقية الجيش الليبي الوطني.

فهي تبدأ بحرب نفسية وحروب شائعات تضع صوب أعينها انقسام وتشرذم مكونات المجتمع وشرائه، ويث نيران الفرقة بينها وخط الأوراق بين مؤسسات الدولة والنيل من رموزها، وبذلك تسعى إلى وضع الدولة أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تعمد في حالة الأزمات الداخلية إلى منع المظاهرات والاحتجاجات والقيام بالاعتقالات، وبالتالي الوقوع في صدام مع المحتجين والمتظاهرين مع احتمال وقوع فوضى وصولاً إلى حرب أهلية مدمرة، وإما ترك الأمر ينفلت ويصبح فوضى عارمة. والحرب النفسية في كلتا الحالتين تحقق لحروب الجيل الرابع الهدف الذي تنشد تحقيقه.

في السنوات الأخيرة، أول ما استهدفته حروب الجيل الرابع في العالم هو النيل من الأمن القومي واستقرار الدول، حيث تفوقت وسائلها في استهداف شرعية الحاكم مرورا بالمؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية للدولة.

كما شملت النيل من الأحزاب والنقابات، وبث حالة من الشك في مصداقية مؤسسات الثقافة والصحة والرياضة، ما يؤدي في النهاية إلى النيل من المؤسسات الرمزية والدينية بدورها لكي يسهل التدرج في بث الفتنة والطائفية والشوقينية والصدامات العرقية والمذهبية واللغوية والقومية بين الأفراد وبينهم وبين الدولة، وبالتالي التآلب عليها ونزع الشرعية عنها، فيحدث الشلل والانهيار المطلويان دون تدخل عسكري مباشر، وهو ما يؤكد الخبر الاستراتيجي الأميركي مانوارينج ماكس بقوله "عدوك سيستيقظ مينا"، وأنت لم تطلق رصاصة واحدة.

### حروب بالوكالة

هذه الحروب أشد وقعا وقد تؤدي تبعاتها إلى هدم صرح دول وتدمير مؤسساتها الأساسية، سياسيا وأمنيا واقتصاديا واجتماعيا. فهي تشنت الأفكار وتلاعب بعواطفنا ومطالبنا على حد سواء، تجعل خصمها يستسلم صاغرا لها بسهولة، وأحيانا كثيرة دون مقاومة، تعرف متى تغير النعرات والرغبات.

وهي قادرة على تقييد حركة العقل، وتشجيت الانتباه عن القضية الأساسية، بل وتذهب بالفرد أحيانا في جميع الاتجاهات لما لها من قدرة على تشتيت التركيز من جهة، أو تدفع دفعا إلى الفعل ورد الفعل في مدهما الأقصى من تخريب وفوضى من جهة أخرى.

في هذا الإطار، قامت هذه الفلسفة على تسخير وسائل غير الوسائل العسكرية، فالمهاجم والمعتدي اليوم في مجال العلاقات الدولية يلجأ أولا إلى الحروب بالوكالة

غير العصر الحالي أساليب التعامل مع الخصوم وطرق شن الحروب، إذ باتت الحملات الإعلامية والدعائية وقدرتها على نشر الأخبار المضللة والإشاعات بهدف كسب جولات في الحرب النفسية ضد العدو طريقة حديثة للقتال وتحقيق الأهداف والأجندات سواء سياسيا أو ثقافيا أو اجتماعيا.

حروب من دون مدافع، لكن تأثيرها أشد وقعا وخطورة، وبالتالي، فهي عكست هدف تدمير القوة العسكرية بتدمير القوة المدنية، وتخريب عقول المواطنين. هذه الحروب تلعب على الضغط العصبي الفردي والوعي الجمعي لكي تصل إلى نفس الأهداف بانتهاب الخصم والسيطرة عليه، وهي بذلك تحرك أوتار الحس والنفس وكل نوازع التهيج والإثارة، لا نار فيها تطلق ولا تسال فيها دماء، تضرب هذا بذلك، وبالتالي يفقد معها الإنسان القدرة على التمييز بين من يقول الحقيقة، ومن يكذب، وصولا إلى الانهيار الشامل والشلل التام.

وهي بذلك تبدأ بحرب نفسية تستهدف تغيير السلوك وطريقة التفكير والتأثير على الجمهور إما لأغراض إيجابية وإما لأغراض سلبية إيمانا منها بأن من يكسب المعركة الإعلامية والنفسية يكسب بسهولة الحرب العسكرية. ويقع ذلك تحت طائلة ممارسة العنف الرمزي بممارسة عنف معنوي يثير داخل نفسية المتلقي شكوكا تلو أخرى في نفسه وفي غيره، وبالتالي شكوكا في كل ما هو إيجابي مقابل التركيز على كل ما هو سلبي، وبذلك يسهل تكبيله بحاجز الخوف وعدم الثقة إذا أراد أن يعلق وأن يتوقف، خشية أن تصيبه لعنة السخرية وسيل من اللعنات والشائعات، ومن ثم يصاب بالعمية والسلبية.

لكن هذه السلبية مبروسة بعناية، فهي مفتاح يؤدي في البداية إلى التشكيك وبعده إلى المسايرة، ومن ثم إلى عدم التفريق بين الشائعات والحقائق. ومن ثم، كانت الدعاية والدعاية المضادة ترجمة فورية للنيل من وحدة الدول وتفكيك وحدة شعوبها وانسجامها، لأن هذا النوع من حرب الجيل الرابع يعمل بالأساس على استهداف قوى الدولة السياسية والأمنية والإعلامية والاقتصادية والاجتماعية.

والنيل من أسلوب معتمد في حروب الجيل الرابع، هو استخدام نظرية الكاوس الفوضوية في الفيزياء الحديثة، قوامها تكسير النظام بالفوضى وخلق نظام جديد يخرج من رحم تلك الفوضى.

مؤدى هذه العملية تأمين انسياق الجماهير وتبعيتها المطلقة بدعاية

الاستقطاب أحيانا ودعاية التدمير أحيانا أخرى، بحيث تصنف الجماهير كمجرد أرقام. يقوم تصنيفها بحسب العاطفة والجذب باللعب على الغرائز والعاطفة والإثارة، فمنها من يجنبه الخوف، ومنها من تجذبه صورة الشجاعة، ومنها من تستغفره صور الحرمان، ومنها من تجذبه مظاهر الشراء والقوة، ومنها من تتهاول المعلومات والأخبار والصور والشوايات التي تخاطب عاطفته ومشاعره بفعل تلك الهندسة الغرائزية لكي يقع في حضانها أسيرا لا يمكن أن يفك طلاسمها أو يسبغ في بحر أمواجها.

والواقع، ترجع فلسفة حروب الجيل الرابع إلى الحكيم الصيني صن تزو (551 و496 قبل الميلاد) بقوله الشهير "الانتصار في المعارك ليس هو النجاح التام في المعارك التي تخوضها... النجاح التام هو أن تكسر مقاومة العدو من دون أن تخوض قتالا". وكانت

"الحرب في نظر فون كلاوزفيتز استمرارا للسياسة بوسائل أخرى".

لكن حال الحروب اليوم في تغير دائم، فإذا كانت حرب الجيل الأول تعتمد على قوة الرجل وما يحمله من عدة وعتاد، وحرب الجيل الثاني تعتمد على قوة الحديد والنار لإحكام القبضة، فإن حرب الجيل الثالث قامت على حصار القوة العسكرية ذاتها من أجل عزلها ومحاصرتها، بحيث تشترك حروب الأجيال الثلاثة في كونها تريد تدمير قوة الخصم، وفرض الهزيمة عليه بتجريده من قوته العسكرية واحتلال الأرض وتكبيده الخسائر. أما حروب الجيل الرابع، فهي

د. حسن مصدق  
أستاذ في جامعة  
فانسين باريس 8

يعرف الناس أن الحروب ثلاثة أنواع، لكن القليلين منا فقط من يعرفون بأن النسخة الرابعة الأخيرة منها، وهي الحرب الإعلامية، أشد بأسا وخطورة من نسخها التقليدية، فهي حرب من دون وضع أيد على الزناد وإطلاق رصاص ودوي مدافع، لكنها أشد وقعا وتأثيرا. ومن ثم يستحيل أن ننصر في حرب لا نعلم عنها أي شيء، ولا نملك عنها أي معلومات، ولا نعرف من يديرها؛ وبأي أسلوب يخوضها أصحابها؛ وما هي ثقافتها؛ وماذا نعرف عنها؛ ومن يقف وراءها ويديرها؛ وكيف وبأي أدوات؟ فهي تخلق الشائعات بالحقائق، وتعمل على تصديق الأخبار من دون فحص وفرض. حروب الجيل الرابع حروب من نوع جديد لها أسلوبها الخاص، وهي اليوم تحكم قبضتها علينا من جميع الجهات دون أن ندري، فهي تزودك بكل ما تريد من أخبار ومعلومات في كل دقيقة ولحظة.

### وسائل جديدة

تقوم هذه الحرب على الدعاية والدعاية المضادة، وتتبنى استراتيجية التأثير لتغيير السلوك ونمط التفكير دون أن تلعن عن نفسها ودون أن يكون لها عنوان واضح مرئي أو تأثير مكتشف جلي، غايتها إجهاد العدو وتفكيك عناصر وحدته بتغييرات نفسية يمكن أن تمتد على مدى متوسط أو مدى بعيد، قد يكون أسابيع وشهورا أو سنوات، تقوم أدواتها على عناصر جديدة غير القوة العسكرية لكي تجنبه أهوال التدخل المباشر والسرور العدائية التي تقابل بها قواته الغازية.

والنيل من أسلوب معتمد في حروب الجيل الرابع، هو استخدام نظرية الكاوس الفوضوية في الفيزياء الحديثة، قوامها تكسير النظام بالفوضى وخلق نظام جديد يخرج من رحم تلك الفوضى.

مؤدى هذه العملية تأمين انسياق

الجماهير وتبعيتها المطلقة بدعاية الاستقطاب أحيانا ودعاية التدمير أحيانا أخرى، بحيث تصنف الجماهير كمجرد أرقام. يقوم تصنيفها بحسب العاطفة والجذب باللعب على الغرائز والعاطفة والإثارة، فمنها من يجنبه الخوف، ومنها من تجذبه صورة الشجاعة، ومنها من تستغفره صور الحرمان، ومنها من تجذبه مظاهر الشراء والقوة، ومنها من تتهاول المعلومات والأخبار والصور والشوايات التي تخاطب عاطفته ومشاعره بفعل تلك الهندسة الغرائزية لكي يقع في حضانها أسيرا لا يمكن أن يفك طلاسمها أو يسبغ في بحر أمواجها.

والواقع، ترجع فلسفة حروب الجيل الرابع إلى الحكيم الصيني صن تزو (551 و496 قبل الميلاد) بقوله الشهير "الانتصار في المعارك ليس هو النجاح التام في المعارك التي تخوضها... النجاح التام هو أن تكسر مقاومة العدو من دون أن تخوض قتالا". وكانت

"الحرب في نظر فون كلاوزفيتز استمرارا للسياسة بوسائل أخرى".

لكن حال الحروب اليوم في تغير دائم، فإذا كانت حرب الجيل الأول تعتمد على قوة الرجل وما يحمله من عدة وعتاد، وحرب الجيل الثاني تعتمد على قوة الحديد والنار لإحكام القبضة، فإن حرب الجيل الثالث قامت على حصار القوة العسكرية ذاتها من أجل عزلها ومحاصرتها، بحيث تشترك حروب الأجيال الثلاثة في كونها تريد تدمير قوة الخصم، وفرض الهزيمة عليه بتجريده من قوته العسكرية واحتلال الأرض وتكبيده الخسائر. أما حروب الجيل الرابع، فهي

